بَائِعَةُ الوَرْد



سلسلة المغامرين الاذكياء

٣

دار النفائس

لئن كانت غاية القصة « البوليسية » جذب القارئ ، وشدّه إلى متابعة أحداثها ، وتعويده على دقة الملاحظة ، وحضور البديهة .. إن كتّابها لم يراعوا – في الغالب – العرض الفنيّ والأدبي ، ولم يهتموا بالجانب الخلقي ، ولم يهدفوا إلى بناء المواطن المثالي ؛ لذلك فإنهم إن أفادوا من جانب ، فلقد أضروا من جوانب شتى .

في قصتنا « البوليسية » هذه نعتز بالمحافظة على غاية هذا اللون من القصص ، مضافاً إليها العرض الأدبي الرائع ، والاعتزاز بالخلق الرفيع ، والاهتمام بالمبادئ التربوية القويمة التي جاءت بها ديانات السماء كلها وحَضَّت عليها .

بالفخر الكبير ، نضع قصتنا هذه بين يدي الآباء والأمهات والأولاد والبنات والأخوة والأحباب وكل الغيارى على الفن والأخلاق .. مؤمنين أن هذا سبيل من سبل خدمة الأجيال :



صدر من

« المغامرون الاذكياء »

رقم : 79-63/3



المغامرون الأذكياء

بائعة الورد

إعداد وتأليف
عبد الحميد الطرزي

تحرير وإشراف
الدكتور بكري شيخ أمين

دار النفائس



للطباعة والنشر والتوزيع
شارع فردان - بناية الصباح
وصفي الدين - ص.ب ١٤/٥١٥٢
برقياً: دانفايكو - ت ٨١٠١٩٤
أو ٨٦١٣٦٧ بيروت - لبنان

الطبعة الأولى : ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م
الطبعة السادسة مصورة بالأوفست عن الطبعة السابقة : ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

مقتل بائع الصحف

كان استغراب « المفتش جميل » بالغاً لتأخر « العم حسن » في حمل جرائد الصباح إليه. وها هو ذا النهار قد ارتفعت شمسه في قبة السماء ، والعم حسن لم يأتِ بصحف الصباح بعد .. والعهد به أنه لا يتأخر ولا يتلكأ ، وقد مضى على عادته هـــذه قرابة عشرين عاماً .. إذن ! ما باله اليوم لم يأتِ بجرائده كعادته ؟ أترى أصابه حادث ، أو ألمّ به مرض ، أو اعترضه ما لم يكن في حسبانه ؟؟..

ودارت الظنون دوامةً في رأسِ المفتش جميـــل ، وانتابته خواطر ، واستبدّت به الهواجس.. حسنة حيناً، وسيئة أحياناً.

وكان ولده « خالد » قـد أتمّ تمريناته الرياضية الصباحية ، واغتسل استعداداً لتناول فطوره مع أبيه .. في حين كان القرد « سرور » يمشي في ركابه ، يقـلده في تمريناته ، ويغتسل

بالماء كما يغتسل ، ويستعد للإفطار كما يستعد ، ويمشط شعره كما يفعل خـــالد ، لكنه يزيد عليه بشدة غيظه من شعره المفتول، المستعصي على التمشيط والترجيل .

ولاحت من المفتش نظرة إلى « سرور » ، فابتسم ابتسامة خفيفة وقال له :

– ألم تفهم بعدُ يا « سرور » أن المشط لا ينفعك كما تنفعك الفرشاة ؟

ويبدو أن « سرور » فهمَ مغزى قول سيده ، فرمى المشط جانباً ، وتناول الفرشاة ، وراح يسوّي شعره قدر استطاعته ، ثم أسرع لحاقاً بخالد الذي دلف إلى غرفة الطعام،دون أن ينسى في لحاقه المرور على المرآة الكبيرة ، والوقوف تجـاهها لحظة ، ليتأكد من حُسن لياقته وجمال شكله .

سلـّم خــالد على أبيه ، وقبّل يده – كما يفعل كل ولد بارّ مهذّب – وابتدره أبوه قائلاً :

– يا خالد ! لقد شغل بالي تأخر العم حسن بجرائد الصباح، آمل أن تذهب إليه ، وتستطلع سبب تأخره ، وأنا منتظرك لنفطر معاً .

في هذه اللحظة دخلت « الماما سعاد » غرفة الطعام ، فهرع نحوها خالد ، وحيّاها تحية الصباح ، وقبّل يديها .. وارتفع في

هذه اللحظة صوت « فصيح » مطالباً « الماما سعاد » بالسكر .
والتفت خالد إلى أبيه وقال :

– سأحضر صحف الصباح ، وأستطلع خبر العم حسن ، وأعود فوراً يا أبتاه .

وأسرع يهبط درجات المنزل ، والكلب « فينو » يركض وراءه .. واكتفى « سرور » بمراقبتهما ، بينما كان يلوك بين فكّيه قطعة من كعك وضعتها في فمه « الماما سعاد » . وكأنه فهم بذكاء القردة أن « خالداً » لن يتأخر طويلاً ، لذلك آثرَ لوك كعكته على اللحاق به .

وصل خالد إلى دكان العم حسن ، فألفاه مغلقاً ، وتلفّتَ ذات اليمين وذات الشمال ، فأبصر صبياً يحمل صحفاً ، وينادي عليها ، فاستدعاه ، واشترى منه ما رغب من صحف ، وسأله :

– أين العم حسن يا غلام ؟

أجاب الفتى :

– العم حسن ؟ لقد صدمته سيارة البارحة ، ونُقل إلى المستشفى الأهلي .

حزن خالد من هذا النبأ الأليم .. واستتبع سائلاً الغلام :

– وهل إصابته خطرة ؟

ردّ الفتى ، وهو يسرع نحو رجل استدعاه ليشتري جريدة :

– لست أدري .. ولكن يقال : إنه نزف دماً كثيراً .

اكتفى خالد بجواب الغلام ، وعاد أدراجه نحو أبيه حزيناً كئيباً ، آسفاً على ما حلّ برجل مسكين ، كان يحمل الصحف إلى أبيه بانتظام منذ عشرات السنين ، وأصبح كأنه واحد من أسرته .

ودخل المنزل واجماً ، وتقدم من أبويه قائلاً :

– لقد صدمت العم حسن سيارة طائشة ، ليلة البارحة ، ونزف دماً غزيراً ، ونُقل إلى المستشفى الأهلي .

سألته أمه بأسىً بالغ :

– وهل إصابته خطيرة يا بنيّ ؟

ردّ خالدٌ والحزن يملأ وجهه :

– لقد أخبرني صبيّ يبيع الصحف في جوار دكان العم حسن أنه نزف دماً كثيراً .

وظهر الوجوم على محيّا الأبوين ، وغصّت اللقمة في حلق المفتش جميل ، وتوقف عن شرب الشاي من قدحه ، ونهض من مكانه ، واتجه نحو الهاتف ، وأدار قرصه على رقم المستشفى الأهلي .. وجاء صوت من الطرف الآخر يقول :

– هنا المستشفى الأهلي .

وقال المفتش :

– أنا المفتش جميل ، أرجو وصِّلي بالطبيب المناوب ..
وسكت برهة ، ثم عاد يقول :
– أسْعِدْتَ صباحاً حضرة الطبيب . أرجو إفـادتي عن حال رجل نُقل إليكم البارحة إثر صدمته بسيارة .
وأصغى المفتش لحظات ، ثم سُمِعَ يسأل :
– إلى هـذا الحد ؟ مسكين هذا الرجل . شكراً لك أيها الطبيب .. نعم .. يهمني أمرُه كثيراً .. هو جاري .. وأنا أشتري منه الصحف منذ سنين طويلة .. سأحاول أن أزوره .. أكرِّر الشكر لك حضرة الطبيب .
وأقفل جميل الخط ، وارتدّ إلى غرفـة الطعام متجهماً . وسألته زوجته :
– كيف حاله يا جميل ؟
أجابها بحزن واضح :
– يقول الطبيب : إن إصابته جسيمة ، وحـاله خطرة ، ودماؤه التي نزفت زادت الطين بلّة ، إلى جانب شيخوخته الطاعنة ، وجسمه الضاوي النحيل .
تجرّأ خالد على سؤال أبيه بصوت خفيض :
– سمعت حضرتك تقول : إنك ستزوره في المستشفى، فهل تسمح لي بمرافقتك يا أبي ؟

أجاب أبوه ببساطة :

– وما يمنعك يا خالد ؟ فالرجل المسكين حملك على كتفيه طويلاً ، يوم كنتَ طفلاً صغيراً .

وقالت الأم :

– وكذلك سأصحبكما. إنه ليعزُّ عليَّ ما أصاب العم حسن.

ولم يمانع جميل ، ولا سيما أن هـــذا اليوم هو يوم عطلته الأسبوعية، ومثل هذه الزيارة واجب إنساني على أفراد الأسرة جميعاً ...

واستعجل الأب زوجه وولده ، لأن هذا اليوم هو الجمعة ، والمستشفى يغصُّ بالعُوّاد والزائرين .

واقترحت الأم أن تعدّ لزوجها فنجان قهوة، ريثما ينتهي هو وخالد من ارتداء ملابسهما .

ودلف خالد إلى غرفته مسرعاً بارتداء ملابسه ، ولم ينسَ أن يدسّ في جيبه شيئاً من المال أخذه من مدخراته ، وسرعان ما خرج إلى الشرفة ، متنـــاولاً الصحف ، مُعرِضاً عن قراءة أخبارها السياسية، مفتشاً عن صفحات الحوادث، طائراً بعينيه من خبر إلى خبر، راجياً أن يقرأ شيئاً ما عن حادث العم حسن، لكنه أُصيب بخيبة أمل حين لم يجد أيّ إشارة إليه .

وعاد الأب إلى الشرفة بعـــد أن استكمل لباسه ، وجلس

منتظراً قهوة زوجه .. وتوجَّه إليه ولده خالد بقوله :

ـ لم تأتِ صحف الصباح بأي خبر عن حادث العم حسن .

أجابه أبوه :

ـ قد تكون في اليوم الواحد ، أحياناً ، مائة حادثة ، والصحف لا تنشر عنها كل شيء ، بل قد لا تشير إلى كثير منها . إنها لو فعلت ذلك لمَلأت جميع صفحاتها بتلك الأخبار .

وحضرت الوالدة بالقهوة ، ووضعتها على المنضدة الصغيرة ، وانسلّتْ إلى غرفتها لاستكمال لباسها .. وما هي إلا دقائق حتى عادت وقالت :

ـ أنا على استعداد يا جميل !

وألقى المفتش بالجريدة جانباً ، وقال :

ـ أرجو أن نلحق به قبل فوات الأوان .. إن الطبيب متشائم جداً من حالته الصحية .

حينئذٍ قالت الأم :

ـ إذن ، فلنسرع يا جميل ، فالمسكين وحيد لا قريب له .

وغادر الجميع المنزل ، وانطلقت بهم السيارة إلى المستشفى ، ويعرفه المفتش حجرة حجرة ، وزاوية زاوية ، لكثرة ما تردّد عليه لسؤال مصاب ، أو استجواب جريح .

وترجَّل الطبيب «حامد» من سيارته ، قبيل وصول المفتش

جميل بثوانٍ معدودة ، وما كاد يراه حتى اتجه نحوه مرحّباً ، وهو يقول :

– أسعدتَ صباحاً يا حضرة المفتش جميل ، يا لهــا من مصادفة سعيدة .

وتصافح الرجلان ، وشدّا على أيديهما ، مما يشير إلى صداقة متينة بينهما ، ولقاءات مستمرة تجمعهما .. تلك اللقـــاءت التي ابتدأت بزيارة عمل بدأها المفتش، وتكررت مع الأيام، وتولـّد منها تعاطف ، ثم صارت إلى زيارات في المنزل ، وانتقلت من الرجلين إلى أسرتيهما ..

وسأل الطبيب حامد صديقه المفتش :

– أهي زيارة عمل أم صداقة ؟

ابتسم المفتش جميل وأجاب :

– لا هذه ، ولا تلك ، فسعاد وخـــالد في السيارة ، وقد حضرنا جميعاً لزيارة شيخ مسكين ، أُصيب البارحة في حادث سيارة ، اسمه « العم حسن » وهو بائع صحف ، يعيش وحيداً منذ أمد طويل .

أجابه حامد ، وهو يتجه نحو السيارة :

– أولاً ، فلتتفضل السيدة سعاد بالنزول .

وفتح الباب ، وصافح السيدة ، ورجاها بالنزول ، والتفت

إلى خالد وسلّم عليه .

وهبطت الأم وولدها من السيارة ، وساروا جميعاً نحو الباب الرئيس لمستشفى ، واتجهوا فوراً إلى مكتبه ، وسرعان ما استدعى الطبيب وفهم منه أن حالة الرجل تزداد سوءاً .

قال المفتش :

– أرى أنه يحسن بنا أن نسرع إليه .

وصحبهم الطبيب حامد إلى سرير الرجل العجوز ، الذي كان غارقاً في الضمادات ، وإبرة طويلة مغروسة في ساعده يسيل فيها «سيروم» مُعلّقَ على مشجب إلى جانب السرير، بينا عيناه مغمضتان .

سأل حامد :

– أهو في غيبوبة ؟

أجاب الطبيب المناوب :

– العجيب ، أنه في يقظة تامة ، ووعي كامل .

وأخذ الطبيب « رجب » معصمه ليجسّ نبضه ، ففتح العم حسن عينيه ، وبنظرة ضعيفة رأى المفتش « جميل » وزوجه وولده قبالته ، وافترّت شفتاه عن ابتسامة ، وقال بصوت منخفض :

– سيدي المفتش ، حفظك الله ورعى أسرتك .. أنا عاجز

عن الشكر لكم .

انحنى عليه المفتش ، وقال له برقّة ونعومة :

– إنه واجبنا يا عم حسن ، وفضلك علينا كبير .. المهم الآن كيف صحتك ؟

أغمض الرجل عينيه ، وكأنه يستجمع كل قواه ، وقال :

– دعوت الله هنا أن أراك قبل أن أموت .. سيدي ، إنها بائعة الورد ، بائعة الورد ...

وسكت العجوز ، وانتظر المفتش أن يعود إلى فتح جفنيه ، ويكمل ما بدأ به ، وطال انتظاره .. وتقدم الطبيب ، وجسّ نبضه من جديد ، فإذا قلبه قد توقف .

ورفع الطبيب رأسه ، وقال بتأثر :

– لقد مات ..

خرجوا من الغرفة صامتين ، و« الماما سعاد » تجفف دموعها ، وخالد يغالب دموعه بصعوبة ، بينما غرق المفتش جميل في تفكير عميق ، وراح يتساءل في نفسه : ما معنى « بائعة الورد » ؟ بل ما علاقة « بائعة الورد » بما جرى له ؟

وصحبهم الدكتور حامد إلى مكتبه ، وجلسوا في جوّ كئيب ، لم يقطعه إلا قول الطبيب :

– يبـــدو أن الرجل عزيز عليكم ، ولكن « لكلِّ أجَلٍ كتاب » .

أجابه المفتش :

– هذا صحيح يا دكتور ،ويظهر أن أجَله كان نتيجة حادث متعمَّد ، فسَّره بهذه الكلمات الغامضة .

وراح الدكتور حامد يردِّد كلمات العم حسن الأخيرة :

– بائعة الورد .. إنها بائعة الورد .. وسأل :

– أليس هذا كل ما قال ؟

وأجاب المفتش متسائلاً :

– أليس في قوله ما يوحي بأن بائعة الورد هذه تعلم بما أصابه ؟

فكَّر الدكتور قليلاً ، ثم قال :

– بصراحة ، أنا لا أفهم في هذه الأمور ، ويبدو لي أننا لو أخذنا بآخر كلمات يتلفظها المصابون هنـــا ، وأردنا تفسيرها ، لامتلأت ملفاتك بآلاف القضايا .

وقطع المفتش عليه سلسلة حديثه متسائلاً :

– أتعني يا دكتور أن ما ردَّده المسكين كان مجرد كلمات لا معنى لها ؟

تنهَّد الدكتور حامد ، وأجاب :

– هذا ما يظهر لي ، فلا تشغل ذهنك بهذيان رجل يموت .

وظلَّ المفتش برهة صامتاً ، ثم قال :

– لك الشكر يا دكتور ، ومَن يدري ؟ فقد يكون ما ردّده ليس هذيان رجل يحتضر ويموت .

ونهضوا يهمّون بالانصراف ، ونهض الدكتور يودّعهم حتى باب السيارة .. والتفت إلى السيدة سعاد قائلاً :

– سنزوركم قريباً .. زوجتي تلحُّ عليَّ كل يوم لزيارتكم ، ولكن مشاغلي هنا وفي العيادة هما السبب في عدم القيام بتلك الزيارة .. وأعدكم أن نزوركم خلال أيام .

أجابته سعاد :

– بَلّغْ حرَمَكم تحياتي ، وأنت الذي تحجبها عن زيارتنا .

وأقلعت بهم السيارة ، والمفتش صامت لا ينبس ببنت شفة ، وكذلك التزم الصمت خالد وأمه طوال الطريق .. ووصلوا المنزل ، ونزلت سعاد وخالد منها . أما جميل فقد أخبرهما أنه سيغيب بعض الوقت ، ووعد أن يعود عند موعد الغداء .

وصعدت الأم وولدها درج المنزل ، فاستقبلها الثالوث الحيواني بضجة فرح : « فينو » ، و « فصيح » ، و « سرور » . لكن عدم تجاوب الأم وخالد وإياهم ، جعل الثالوث يفهم أن « الماما سعاد » على غير استعداد لتقبُّل أية مداعبة .

واقتعد خالد كرسياً ، وغرق في تفكير ومناقشة ، وراح يتساءل عن معنى ما قاله العم حسن ، وما دور بائعة الورد في الحادث ؟.. ومَن هي بائعة الورد هذه ؟.. أتراها هي المجرمة ، وقد اتهمها العم حسن اتهاماً مباشراً ؟..

ودخل المنزل بقية « الفرقة » : وليد ، وعصام ، وليلى ، فوجدوا خالداً سابحاً في بحور من تفكير ، ووجهه مغطّىً بسُحُب من حزن وأسى .

ابتدرته ليلى بقولها :

– صباح الخير يا خالد ! ما بك ؟

ابتسم خالد ابتسامة أقرب إلى البكاء منها إلى الفرح وأجابها:

– مرحباً يا ليلى، أهلاً بك يا عصام ، صباح الخير يا وليد .

سأله عصام باهتمام لا يخلو من سخرية :

– ما لي أراك حزيناً كاسف البال ، كأن زلزالاً حطّم أملاكك ؟

أجابه خالد :

– أتدري يا عصام أن العم حسن ، جارنا العجوز ، بائع الصحف ، مات اليوم ؟

صاحت ليلى بأسىً :

– أتقول : العم حسن مات ؟

وتقدم وليد نحو خالد ، وقال بلهجة هي مزيج من حزن وسخرية :

ـ رحمه الله رحمة واسعة ، وأسكنه فسيح جنانه .

عاد خالد يشرح لهم الأمر :

ـ في موت العم حسن غموض غريب .

أثارت كلماته فضولهم جميعاً ، فسألته ليلى :

ـ وَضّحْ لنا الغموض .. كيف مات ؟..

أجاب خالد بإيجاز :

ـ صدمته سيارة ليلة البارحة ، ونُقل إلى المستشفى الأهلي ، واليوم صباحاً ذهبنا إلى زيارته أنا وماما وبابا ، ومات ونحن عنده .

قال عصام باستغراب :

ـ وما الغموض في ذلك يا خالد ؟ كل ما في الأمر أن سيارة صدمته ، ومات متأثراً بإصابته ، إذن ما الغريب في ذلك ؟.

أجاب خالد موضحاً :

ـ الغريب هو الكلام الذي ردّده قبيل موته بثانية واحدة.

سألته ليلى متلهفة :

ـ وماذا قال ؟

أجابها بهدوء :

– ردّد ثلاث كلمات ، وهي تصلح مطلعاً لقصة بوليسية .. قال : « إنها بائعة الورد ، بائعة الورد » .

وسكت خالد ، فسأله وليد بحيرةٍ :

– وما معنى ذلك ؟ ومَنْ تكون بائعة الورد هذه ؟

نظر إليه خالد بإمعان ، وقال :

– هـذا الذي لا يعرفه أحد إلى الآن ، وإن كان أبي أظهر اهتمامه الزائد بالموضوع، وقد تركنا بعد أن أعادنا من المستشفى، وأؤكد أنه ذهب لدراسة هذا الأمر . ولولا أهميته واهتمامه به لمَا ضحّى بعطلته الأسبوعية الغـــالية ، وتركنا وحدنا على غير عادته .

وسكت الجميع برهة ، ثم ما لبثت ليلى أن قالت :

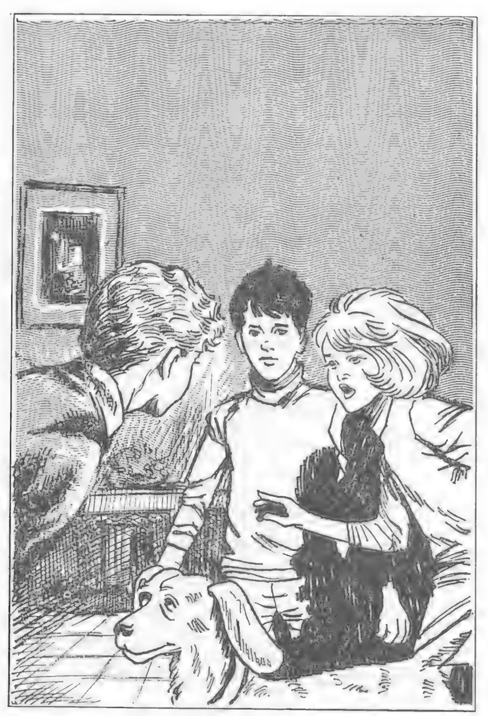
– ولكن الأمر واضح يا خالد ! أين غموضه؟.. إني لا أرى فيه شيئاً .

ونظر إليها خالد نظرة إشفاق ، وقال مستغرباً :

– أتقولين إنه أمر واضح ؟ هل لكِ أن تخبريني من أين جاءه الوضوح ؟

أجابته بهدوء وثقة :

– يجب قبل كل شيء أن تعرف : أين صدمته السيارة ؟ ثم تسأل : إن كان ثمة بائعة ورد ، وهو أمر ليس كثير الحدوث ،



مَن قتل بائع الصحف ؟

فبائعات الورد قليلات في الطرقات . أما إن كانت هذه البائعة تعمل في دكان يبيع الزهور ، فستكون – دون شك – في أقرب مكان من مكان الحادث .

ونظر إليها خالد بإعجاب ، وقال :

– يا ليـلى ! منطقك سليم ، وتفكيرك رائع ، ومحاكمتك جد مصيبة .

سأله عصام :

– هل حاولت تحرّي هذه الأمور ؟.. هل اكتشفت مكان الحادث ؟

أجابه خالد هازّاً رأسه إشارة للرفض ، وقال :

– لقد عدنا من المستشفى قبل مجيئكم بوقت قليل ، ولا أنكر أن تفكيري مشتّت جداً ، لأنني تأثرت بوفاته تأثراً كبيراً .. كنت أحب هذا الرجل الوديع .. وأتساءل : هل مات مقتولاً ؟؟.

قالت ليلى :

– معنى كلماته يوحي بشيء مما تقول .. لِمَ لا نبـــدأ نحن بالتحرّي ؟

فكّر لحظة ، ثم نظر إلى ساعته ، فوجـــدها تشير إلى الحادية عشرة والنصف ، وأدرك أن في الوقت سعة ريثما يحين موعد الغداء وعودة أبيه ، وثارت في نفسه نزعة المغامرة ، فقال :

ـ هيّا بنا ! ولكن دبّروا لنا عذراً مقبولاً نعتذر به إلى الوالدة ، لتسمح لنا بالخروج ، ولا تثور في نفسها شكوك بنا ، ولا سيا أنها في حزن عميق ، وتعيش المأساة الأليمة .

قال وليد بكل بساطة :

ـ نقول لها : اليوم يوم جمعة ، ونريد أن نتمشّى قليلاً .

قال خالد :

ـ إذن ، قابلوها أولاً ، واستأذنوا منها ، وبعد ذلك تقترح ليلى الخروج إلى الحديقة .. وبهذا يكون الأمر عادياً تماماً .

قال عصام بضيق :

ـ كم أكره أن ألوي الحقيقة ، ولا أصرّح بما أنوي فعله .

أجابته ليلى :

ـ كلنا نحب الصراحة ، ولكن « الماما سعاد » لا يمكنها التفاهم معنا الآن ، سترفض كل اقتراح دون نقاش .

فكّر خالد برهة ، ثم قال :

ـ أرى أن نخرج الآن إلى الحديقة ، ونتداول الرأي ، ونقرر الخطوات التي يجب أن نخطوها بكل تبصُّر ، ثم نستأذن « الماما » .

وخرج الجميع متجهين نحو الحديقة القريبة ، وتمشوا فيها قليلاً ، وقال لهم عصام :

ـ أعتقد أن الوقت يمرُّ سريعاً ، ونحن لم نصل إلى شيء بعد .

أجابه خالد :

– إذن، دعونا نتجه نحو دكان العم حسن،وحينئذٍ لن نعدم وسيلة لمعرفة مكان الحادث .

وانطلقوا باتجاه دكان العم حسن ، فلم يجد خالد الفتى الذي كان يبيع الصحف في الصباح ، وإنما وجد رجلاً آخر فرّش على جانب من الرصيف جرائد ومجلات مختلفة،وجلس إلى جوارها.

واقترب منه خالد ، وأخذ يقلّب بعض المجلات ، وانتقى عدداً منها ، ثم أخرج النقود ليدفعها إلى الرجل ، ولكنه قبل أن يفعل قال :

– رحمة الله عليك يا عم حسن .. كان صديقاً مخلصاً ، وجاراً أميناً .

واتسعت عينا بائع المجلات ، وسأله بلهفة :

– هل مات العم حسن ؟ لقد نقلوه البارحة إلى المستشفى ، ولكنه كان حياً .

أجابه خالد بأسى :

– ذهبت لأزوره ، فمات وأنا عند رأسه .. ويقال : إن سيارة صدمته هنا إلى جوار دكانه .

قال البائع مكذباً :

– مَن قال : هنا .. كنت لحظتها في طريقي إلى المقهى ..

لقد صدمته سيارة أمـــام الصيدلية في الساحة التي تتوسّطها النافورة .

تظاهر خالد بالدهشة وقال :

– ولكن الصيدلية بعيـدة عن طريق السيارات ، وبينها رصيف عريض .

قاطعه الرجل قائلاً :

– تلك هي الغرابة ، فالعم حسن لا يسير في عرض الجادة أبداً ، وكان وقتها إلى جوار باب الصيدلية ، وبين مكانه ونهاية الرصيف مسافة لا تقلّ عن ثلاثة أمتار .. ومع ذلك ، فقـــد صدمته السيارة ، إذ صعدت إلى الرصيف بسرعة جنونية ، واتجهت نحوه وصدمته صدمة قاتلة ، ثم انكفأت إلى الجادة ، وانطلقت هاربة كالبرق .. وما أظن سائقها إلا مخموراً آنذاك .

سأله خالد ، وهو يهمّ بدفع ثمن ما انتقاه من مجلات :

– ألم يكن أحد إلى جانبه حين صدمته السيارة ؟ ألم يلتقط أحد رقم السيارة الجانية ؟

أجاب الرجل بكل بساطة :

– لم ألق بالاً إلى هذا ، وكل ما حدث أني أسرعت لأسعف الرجل ، وكذلك فعل بعض المارّة الشيء نفسه .

عاد خالد إلى سؤاله :

– أتذكر بين الجمع الحاشد فتاة تبيع الورد ؟

دهش الرجل للسؤال ، وبَدَتْ على محيّاه سيماء استغراب وعدم فهم ، وقال :

– تقول : بائعة ورد ؟ وما معنى ما تقول ؟ في الحق إني لم أرَ أيّ فتاة تبيع الورد تلك اللحظة .

واستطرد الرجل في جوابه ، وقد امتلأت نفسُه هزءاً بالسؤال ، وقال :

– ليس لبيع الورد أو شرائه في تلك اللحظة معنى أو مناسبة . وأقصد أن الناس حين يرون مصيبة تقع فإنهم ينسون كل شيء ، إلا الاهتمام بالمصيبة وتدبّرها .. ومع هذا ، فالحيّ في الوضع الطبيعي مفعم ببائعات الورد وبائعيه .. ويكفي أن تعرف أن في نهاية هذا الشارع خمسة محلات تبيع الورد ومختلف ألوان الزهر ، وفيها بنات يَقُمْنَ بعمليات البيع والتعامل مع الزبائن .

ودفع خالد إليه قيمة المجلات التي انتقاها ، وودّعه ، وقد أيقن أنه استخلص من الرجل – دون أن يشعر – كل ما لديه من معلومات ، وأنه بما حصل عليه وقف على شيء كثير .

واتجه مع أصحابه نحو الساحة ، حيث تقع الصيدلية الموصوفة ، والرصيف الذي علَتْهُ السيارة ، والجريمة المقترفة .

ولما اقتربوا من النقطة التي حدّدها الرجل ، رأوا خطوطاً مرسومة على الرصيف بالطباشير البيضاء ، وقال خالد :

ـ هذه الخطوط تبيّن موقع الصدمة ، وتُظهر بجلاء أن السيارة قصدت متعمّدة الطلوع إلى الرصيف ، ودهس الرجل وقتله حتى الموت .

وهزّ عصام رأسه ، وقال :

ـ نعم ! هذا واضح وضوح الشمس .

وهزّ خالد رأسه ، وأردف قائلاً :

ـ مهما كان السائق مخموراً ،فإنه لا ينحرف كل هذا الانحراف ، ويستطيع ـ على أقل تقدير ـ تفادي الاصطدام بباب الصيدلية والدخول فيها .

وتدخلت ليلى بالحديث ، وقالت :

ـ وهذا دليل على أنه لم يكن مخموراً ، وباعتقادي أنه كان يقظاً جداً ، وفي أتمّ حالات الوعي ، ومعرفة ما يريد .

واقترح خالد فكرة جديدة :

ـ ما رأيكم لو قصدنا نهاية الشارع ، ودخل كلٌّ منا مخزناً لبيع الزهر والورد ، وتحدث إلى البائعة بثرثرة لا معنى لها ، وأتى بصورة عرضية على ذكر العم حسن في مجمل حديثه ،وانتبه إلى انفعالها الذي سيبدو على وجهها آنذاك .. إن ذلك يسهّل

علينا الإمساك بأول خيط الجريمة ، لو نجحنا ؟؟.

ووافق الكل على اقتراحه ، وراح كلٌّ منهم يحبّر في نفسه الحديث الذي سيكلم به البائعة .

وافترقوا ، وسار كل منهم منفرداً، كأنهم لا يعرفون بعضهم بعضاً ، بعد أن قسّموا بينهم المخازن ، وعرفوا مهماتهم تفصيلاً .

كان أقرب المحلات من نصيب ليلى ، دخلته مُحَيّيَةً الفتاة الجميلة التي وقفت تنسّق الزهر ببراعة وإتقان ورقة ، وسألتها :

ــ هل أستطيع أن أجد عندك زهرة «بانسيه ـ Pensée » يا آنسة ؟.

ابتسمت البائعة الجميلة وقالت معتذرة :

ــ إن زهر « البانسيه » لم يصلنا اليوم، ويمكنك الاستعاضة بزهرة أخرى أحلى وأجمل !

وظهر الأسف على محيّا ليلى ، وقالت معتذرة :

ــ لقد اخترت « البانسيه » بخاصة لمناسبة حزينة حدثت ، وتعلمين يا آنسة أن كلمة « بانسيه » تعني بالفرنسية « فكرة ، أو ذكرى » .

اقتربت منها البائعة الجميلة ، وكلها حنان ، وسألتها :

ــ هل يمكنك أن تتفضلي وتشرحي لي المناسبة الحزينة ؟

وحدّقت ليلى في وجهها وقالت :



عملية استكشاف

– كنت أودُّ أن أضعها على قبر العم حسن المسكين .
وابتسمت الفتاة الجميلة ابتسامة بلهاء وقالت :
– أهو عمك يا آنسة ؟.. عظّم الله أجرك ، والبقية في حياتك .
ردّت عليها ليلى :
– إنه ليس بعمّي حقيقةً ، ولكنه بائع الصحف الذي صدمته سيارةٌ البارحة ، وقتلته .
وازداد تحديق ليلى في ملامح الفتاة ، وسمعتها تجيب :
– يا لكِ من فتاة رائعة ، رقيقة الإحساس .. أهنئكِ على هذا الإحساس النبيل ، والوفاء النادر . وسألت :
– متى حدث ذلك ؟
وتأكدت ليلى أن مَن تخاطبها لا تدري من الأمر شيئاً ، وأنْ لا صلة لها بالحادثة من قريب أو بعيد ، فقالت :
– في ليلة البارحة ، كان العم حسن يسير على رصيف الصيدلية القريبة من هنا ، وصعدت سيارةٌ الرصيف ، واتجهت نحوه ، ودهسته ، وهربت .
وبدا التأثر على وجه الفتاة ، ولكنها لم تنسَ عملها إذ قالت :
– يا له من مسكين ! على أية حال ، فيمكنك الاستعاضة عن « البانسيه » بباقة من بنفسج ، فهو رمز الحزن والأسى .

وأومأت ليلى برأسها إشارة إلى موافقتها ، وقالت :

– لا بأس ! أرجوك إعداد باقة صغيرة منه .

وهيّأت لها البائعة ما طلبت ، ونقدتها ليلى الثمن ، وانصرفت شاكرة ، وتوجهت إلى المكان المتفق عليه في طريق العودة إلى المنزل ، بطيئة الخطى ، راغبة في قطع الوقت بالسير البطيء ، كيلا تقف وحدها ، لأن ذلك قد يثير انتباه بعض المارّة من الناس .

أما وليد فكان نصيبه المحل الثاني ، وقد حيّته الفتاة الحلوة الملامح ، الرشيقة القوام ، بابتسامة تنمّ عن شبه إعجاب بقامته الفارعة ، وعضلاته المفتولة ، وشبابه الريّان .. وقالت :

– في خدمتك أنا يا سيدي !

واستبدّت الحيرة في رأس وليد ، فلقد نسي اسم الزهرة التي علّمه إياها خالد .

ولاحظت البائعة ذلك في وجهه ، فسألته برفق :

– كأنك تبحث عن زهرة خاصة ، ويبدو أنك نسيت اسمها ، أليس كذلك يا سيدي ؟

وتهلّلت أسارير وجه وليد لذكائها ، وقال :

– هو كذلك يا آنستي .. لقد ذكروا اسم الزهرة التي تصلح للمناسبة ، ولكني نسيته .

قالت الفتاة :

– لو ذكرت لي المناسبة ، فلعلّي أذكّرك باسم الزهرة الصالحة .

ردّ وليد عليها فوراً :

– أودّ أن أضعها على قبر العم حسن المسكين .

واستغربت الفتاة تصرُّف هذا الشاب العملاق الجميل ، وقالت :

– إذن ، فأنت بحاجة إلى باقة من الورد الأبيض ، إذ لا يليق أن تضع على قبر عمك زهرة واحدة .

أجابها وليد :

– إنه ليس عمي يا آنسة ، إنه العم حسن ، بائع الصحف والمجلات ، الذي صدمته سيارة ليلة البارحة قرب الصيدلية ، ونُقل إلى المستشفى ، ثم مات بعد سويعات متأثراً بإصابته .

وكان وليد – وهو يحدثها – يحدق في وجهها ، محاولاً استنطاق تعابيره ، فلم تبدر منها بادرة تدلّ على اطّلاعها على الموضوع ، أو معرفتها شيئاً .. وزاده اقتناعاً ببراءتها أنها قالت له :

– إذن ، اختر ما تشاء .

وأشار وليد إلى أقرب أصيص للزهور ، وطلب أن تعدّ له باقة صغيرة منه .

وضحكت الفتاة ثانية وهي تقول :
ــ ولكن هــــذه الزهور لا يستحسن أن توضع على قبر ..
فألوانها وعبقها وشكلها ترمز للحياة والحب .
وارتبك المسكين لجوابها ، وسرعان ما هزّ كتفيه ، وقال:
ــ أرجو أن تختاري أنتِ لي مــا يليق بهذه المناسبة ، فأنا لا أفهم بلغة الزهور .
وأعدّت له البائعة باقـــة ورد أبيض ، ودفع إليها ثمن ما أعدّت ، وخرج مهرولاً وهو يتساءل : هل فهم شيئاً ؟.. ثم استقرّ رأيه على أنه لم يفهم أيّ شيء .

* * *

أما عصام فقد وصل إلى المحل الذي اختاروه له ، ودخـله بهدوء كعادته ، وحيّا الآنستين اللتين كانتا تعدّان واجهة المحل العريضة ، وتنسّقان الزهور التي وصلت المحل منذ وقت قليل .
تركت إحداهما العمل ، والتفتت إليه باسمة ، وقالت :
ــ أنا في خدمتك ، يا سيدي !
أجابها عصام بكل هدوء :
ــ العفو يا آنسة ، كل ما أطلبه خدمة بسيطة .. إني أودّ أن أزور المقـــابر اليوم ، وأنثر الزهور على قبر إنسان عزيز ،

دهسته سيارة طائشة ليلة البارحة ، على رصيف الصيدلية المجاورة ، والقريبة من هنا ..

وكأن شرح عصام للحادث شدّ انتباه الآنسة الثانية ، فتركت تنسيق الزهور ، ودنت منه قائلة :

– أهو من ذوي قرابتك ، أيها السيد ؟

هزّ عصام رأسه نفياً ، وقال متأثراً :

– لا ، ولكنه عزيز كأحد الأقرباء .. لعلكما لم تسمعا بالحادث ؟

أجابت الفتاتان بصوت واحد :

– أيّ حادث ؟

ردّ عصام ، وهو يتفرّس في وجهيهما :

– في الحقيقة ، كان العم حسن ، بائع الصحف والمجلات المعروف في المنطقة ، يسير على الرصيف ، كما يسير كل مواطن مثقف ومهذب ، وحين وصل قرب الصيدلية ، صعدت الرصيف سيارة مجهولة مسرعة ، واتجهت نحوه عمداً ، وصدمته صدمة قاتلة ، فهوى أرضاً تنزف منه الدماء غزيرة ، وأسرعت هي تلوذ بالفرار . وعندما نُقل العم حسن إلى المستشفى الأهلي ، حاول أطباؤه إسعافه ، ولكنه أسلم الروح هذا الصباح .

قالت إحدى الآنستين :

– مسكين ذلك العجوز .. لقد تعدّدت حوادث السيارات في هذه الأيام ، وأصبح واجباً على الإنسان أن يكون يَقِظاً على الدوام ، وإلا دهسته السيارات المجنونة ، وما أكثرها !.

وقاطعتها رفيقتها معلّقة :

– الأستاذ يقول : إن المسكين كان يسير فوق الرصيف ، أين إذن يجب أن نمشي إذا كنا على الرصيف نفسه معرّضين للخطر ؟؟.

وأدرك عصام من المحاورة أن ضالـّتَه ليست في هذا الدكان، فقال :

– أرجو أن تعدّا لي باقة ورد أنثرها على قبره المتواضع .

وأسرعت واحدة تلبّي ما طلب ، بينما قالت رفيقتها :

– يا لوفاء هذا الشاب ورِقـّة قلبه !.

شكرهما عصام ، ودفع ثمن مـا اشترى ، وعاد مسرعاً إلى المكان الموعود ، المتفق عليه.. ووجد ليلى ووليداً سبقاه إليه.

وهرعت ليلى تسأله :

– ما وراءك يا عصام ؟

قال عصام بصوت حزين :

– عدتُ صفر اليدين ، خـالي الوفاض ، لم أصل إلى غاية .

وخطر له أن يسألها بدوره ، فقال :

– وأنتِ ؟ هل وُفّقْتِ ؟

قالت ليلى بأسى :

– خلّفتُ ما خلّفتَ ، ووصلتُ إلى ما وصلتَ أنتَ .. إني لم أوفّق بشيء .

ونظر عصام إلى وليد ، وأعاد عليه السؤال :

– ما وراءك يا وليد ؟

ضحك وليد ، وهو يقول :

– لقد كانت بائعتي حلوة الملامح والتقاطيع ، لطيفة المعشر ، إنها أنقذتني من ورطة ملعونة .. حين نسيت اسم الزهرة الذي علمتموني إياه . ثم حكى لهم ما جرى له تفصيلاً .

* * *

أما خالد ، الذي ذهب وبصحبته « سرور » و « فصيح » ، فقد توجه إلى أقصى دكان زهور ، وكان « سرور » بلباسه الغريب ، و « فصيح » بكلامه الذي لا ينقطع ، مَدعاة لِلَفت الأنظار ، واستثارة الانتباه .

كان الدكان الذي دخله خالد غاصّاً بطرود الزهور التي لم تفتح بعد ، وكان يتوسط الدكان شاب متجهم الوجه ، وآخر يحاول إعداد الواجهة .

واستقبله الشاب المتجهم ، وسأله بخشونة ، لا تنفق وبائع الزهور :

— ماذا تريد يا سيد ؟

أجابه خالد ، متغاضياً عن لهجته الوقحة :

— أريد زهوراً بيضاء ، تناسب جنازة أحد الموتى .

استدار الشاب المتجهم نحو ركام من الزهر الأبيض ، وراح يعدّ له باقة ، بينا عين خالد تدور في المحل باحثة منقبة ، حتى استقرت على مشجب في الركن .

قال خالد ببرود :

— كان رجلاً طيباً ، محبوباً من الناس جميعاً . . وأضاف قائلاً : جازى الله ذلك السائق المجنون .

لم يلتفت إليه الشاب المتجهم ، بل استمر يجمع له الزهر الأبيض ، ومع ذلك فقد سأله دون أن يلتفت إليه :

— المرحوم الذي تتحدث عنه . . مَنْ يكون ؟ أهو قريبك ؟

قال خالد بصوت حاد ، ولهجة فيها شفيف من غضب :

— ألم تسمع بالحادث ؟؟ مع أنه وقع في جوارك ؟ إن القتيل هو العم حسن ، بائع الصحف والجرائد في نهاية الشارع ، منذ ثلاثين عاماً .

وكان خالد يرقب وَقْعَ كلماتِه على وجه الشاب المتجهم . .

وسرعان ما استدار الرجل الآخر ، وقال :

– سمعنا أن سيارة دهست رجـلاً ، ونُقل إلى المستشفى ، ولكننا لم نعلم بموته إلا منك .. فكيف عرفت ؟

أجاب خالد :

– ذهبت لأسأله عن الصحف التي اعتـاد إحضارها لأبي كل صباح ، فوجدت دكانه مغلقة ، وأخبرني فتى كان يبيع الصحف أمام محله أنه توفي في المستشفى ، فقررت أن أزوره .

لم ينبس الرجلان البائعان ببنت شفة ، وقدّم له المتجهم باقة الزهر ، وناوله إياهـا عابساً ، وإن كان قد شابَ عبوسَه شيءٌ من اضطراب .

ودفع خالد ثمن ما اشترى ، وسأل قبل أن يخرج :

– ألن تشتركا مع أهل الحيّ في تشييع الجنــازة ؟.. إنه إنسان وحيد، لا أهل له ولا ولد ، وعلى الحيّ تكريمه في مماته ، بعد أن خدم الناس جميعاً طوال حياته .

وعاد الرجلان يتبادلان النظرات ، ثم قال الذي كان يرتب الواجهة :

– هذا واجب .. سنشترك – إن شاء الله – .

حيّاهما خالد ، وانصرف ، وهو مبتهج . لقـد توصّل إلى الكثير من هذه الزيارة ، على الرغم من تكتم الرجلين، وصمتهما ،

أو تجاهلها .

وأسرع نحو أصحابه حيث ينتظرون .. فقابلوه بنظرات كلها سؤال .. وقرأوا الجواب في عينيه قبل أن تتحرك شفتاه . لقد فهموا أنه وصل إلى الدليل .. بهذا تنطق عيناه ، وبهذا تتكلم حركاته ، وتشير جوارحه .

قال قبل أن يسأله أحدهم :

– بُشراكم ! طيبةٌ النتيجة . هلمُّوا إلى المنزل لنراجع ما توصّلنا إليه .

قال وليد ساخراً :

– لا شيء نراجعه أو نبحثه .. عدنا بخُفَّيْ حُنَين . أما إذا كان عندك شيء ، فهو الذي نتحدث فيه ونبحثه .

قال خالد وعيونه تبرق فرحاً :

– عندي معلومات .. وأمسكتُ بأول الخيط .. هيّا إلى المنزل .

واكتفى خالد بهذه الكلمات التي شوّقتهم ، وشدّتهم إلى العودة بسرعة ، وكلهم ظامىء أن يعرف ما وصل إليه خالد قبل الوصول إلى البيت .

وجاؤوا المنزل ، وتحلّقوا حول « الماما سعاد » ، وكادت ليلى تذوب اشتياقاً إلى بلوغ السرّ ، وهي التي اقترحت :

– ما رأيكم لو نزلنا لنلعب كرة المضرب .. فذلك يقوّي اشتهاءنا لطعام الغداء ؟.

وكانت – في الحقيقة – تتلهف لنزعهم من جانب «الماما سعاد» لينفردوا ، ويتحدثوا ، ويبلغوا السرّ الذي وصل إليه خالد .

وأدرك خالد ما ترمي إليه ليلى ، فقال :

– لا بأس ، هيّا بنا .. أرجو أن تسمحي لنا يا أماه !

هزّت الأم رأسها موافقة ، فهبطوا جميعاً إلى الطابق الأرضي. وما كادوا يدخلون غرفة الألعاب حتى أغلقوا الأبواب ، واندفعت ليلى نحو خالد قائلة :

– والآن ، إلينا بكل ما عندك .

ابتسم خالد ، وأجابها :

– ولماذا لا تبدأون أنتم بما توصلتم إليه ؟

أجابته بسرعة :

– لا شيء .. لا شيء عندنا .. قُلْ .. تكلمْ .. أرجوك .

اتخذ خالد الموقف الجادّ ، وأبرز صدره إلى الأمام ، وابتدأ يقول :

– أما أنا فعندي الكثير .. ضالتنا في المحل الذي دخلته ، وإنْ كنتُ لم أرَها .

واستبدّت بهم الدهشة ، وسأله عصام :

– ماذا تعني بقولك «لم أرَها» ؟ مَن تقصد ؟ وكيف تقول: « ضالتنا في المحل الذي دخلته » ، ثم تقول : « وإنْ كنت لم أرَها » .. أألغاز تطرح ، أم أحاجٍ تدفع ، أم ماذا ؟؟.

وعاد خالد يبتسم زهواً ، وقال :

– ولِمَ تتسرّعون لمعرفة كل شيء دفعة واحدة ؟ سأقص عليكم ما جرى ، ثم أُدلي لكم برأيي ، فتحكمون بصوابي أو خطئي .

وطفق خالد يقصّ عليهم كل ما حدث له في محل بائع الزهور ، إلى أن وصل إلى قوله :

– بالرغم من أنني لم أشاهد الفتاة ، إلا أنني رأيت حقيبة يدها معلّقة على المشجب ، وهذا دليل على وجودها ، لكني لم أعرف أين هي ، وأتساءل : لِمَ قابلني الشاب بالوجه العابس القمطرير ؟ ولماذا هدّوا في وجهي ، مع أني زبون أشتري منهم الزهور ، وأدفع الثمن نقداً ؟ أسئلة تترى متلاحقة تبحث عن أجوبة .. آه ! كم أتمنى أن أصل إلى لغز بائعة الورد ؟!

تنهّدت ليلى بأسى ، وقالت :

– وأنّى لنا بلوغ الجواب ؟. يخيّل إليّ أنّا ما فعلنا شيئاً.

أجابها خالد بحنان :

– لا تقولي هذا يا ليلى ، لقد وصلنا إلى بعض معلومات ،

ويمكن أن نصل إلى مدى أبعد لو بقينا نتابع طريق الاستطلاع، من مراقبة للمحل .. وللزبائن .. ولتصرفات أصحابه ..

سأله عصام :

— وماذا يفيد ؟

أجابه خالد :

— قد توصلنا المراقبة إلى أشياء وأشياء ، وقد توقفنا على سرّ الجريمة .

تدخّل وليد ، وسأل :

— لنفرض أن رجلاً دخل فاشترى زهراً ثم خرج ، ودخل آخر وفعل مثله، وهكذا ... فهل في هذا الأمر ما يريب ، أو يدعو إلى شك ؟؟.. إن كل المحلات تبيع ، ويدخل إليها ..

ردّ عصام قائلاً :

— نراقب الفتاة التي تعمل في هذا المحل ، ونرصد حركاتها في الدخول والخروج .

وتدخّل خالد في الحوار الدائر قاصداً إنهاءه :

— لقد نسيتم موقع « بابا » في الموضوع .. ربما يكون كل ما ما وصلنا إليه معروفاً لديه الآن .. ومن الطبيعي أن يفكر رجال الشرطة بغير ما نفكر،ويقدرون على ما لا نقدر،ويصلون إلى ما لا نستطيع أن نصل إليه .. وأؤكد لكم أن في جعبة أبي

معلومات كثيرة حين يعود إلينا.. وراقبوه إذا تحدث أو صمت.

سألته ليلى :

– وماذا نفهم إذا لزم الصمت ؟

أجابها ببساطة :

– معنى ذلك أن الأمر خطير ، ولن يتحدث فيه قبل أن يصل إلى نهايته .

وظلّ الحديث بينهم دائراً في هذا المجال ، حتى سمعوا صوت باب سيارة والد خالد ، المفتش جميل ، يصفق . وفهموا أنه عاد .

وخرجوا جميعاً لاستقباله ، فهشّ في وجوههم محيّياً، وقال :

– ما لي أراكم نشيطين ! كأنكم تبحثون قضية وصلتم فيها إلى حل ، أو كأنكم خرجتم من مباراة في كرة الطاولة !!

ردّ عليه خالد باسماً :

– أجل ! هذا وذاك .

وصعدوا برفقته إلى حيث « ماما سعاد » ، وكانت أحسن حالاً من الصباح ، فحيّاها جميل ، وجلس إلى جانبها ، كما تحلّق حولها بقية الفرقة .. واعتذر المفتش لزوجه أنه لن يخلع ملابسه لاضطراره إلى الخروج بعد الغداء مباشرة .

تبادل خالد وليلى نظرات ذات معنى ، وإن لم تفت عين

عصام الذي ظلَّ صامتاً ، ومسلّطاً بصره في وجه المفتش .
وقالت « الماما سعاد » :
– لا تتصوّر كم كنت متألمة هـذا الصباح .. وَشدَّ ما آلمني أنه فاضت روحه وأنا تجاهه أنظر إليه .. لن أنسى هذا المشهد ما حييت !.
أجابها جميل بصوته الحنون :
– لست وحدك التي تألمت يا سعاد ، إن عـذابي بمشهده كان عميقاً .. ولا سيما أن المسكين راح ضحيـــة قتل متعمد – على ما يبدو – .
وشدّت كلماته الأخيرة انتباه الجميع ، حتى وليد. وتساءلت « الماما » مستغربة :
– تقول : ضحية قتل متعمد !.. ومَن هو هـذا الذي قتل ذلك الرجل المسالم المسكين ؟
أجابها زوجها بلهجة غامضة :
– قد يعمد – أحياناً – الجاني إلى القتل ، ظناً منه أن فيه نجاته .. وما الذي يدرينا أن العم حسن اكتشف شيئاً صدفة ، فاضطر المجرم إلى قتله كيلا يفتضح أمره ؟.
وبدت أمارات الحيرة على محيّا الزوجة ، بينما أخـذ خالد يسترجع كلمات والده في ذهنه ، محاولاً الوصول إلى أهدافها..

ولم يقطع عليه تفكيره إلا صوت والده الذي تابع قائلاً :

– لقد أجريت أبحاثاً سريعة عن مصرع الرجل ، وتأكدت تأكداً جازماً أن العم حسن قُتِل عمداً .

صدمته السيارة وهو يسير فوق الرصيف ، وقرب جدار الصيدلية ، والرصيف عريض جداً ، إذ يبلغ عرضه أربعة أمتار.

وحين تتبّعنا آثار عجلات السيارة ، وجدناها اتجهت إليه مباشرة ، صاعدة الرصيف ، قاصدة دهسه .. حتى إذا ما تمّ لها ذلك ، انحرفت بمهارة متفادية الاصطدام بالجدار وواجهة الصيدلية ، ثم عادت إلى الطريق العام هاربة .

ليس ذلك كله صدفة ، أو عَرَضاً من الحوادث .

اعترضت زوجته على استنتاجه قائلة :

– لعلّ السائق كان مخموراً !!

قاطعها المفتش بقوله :

– لا يا سعاد ! لو كان كذلك لمَا استطاع بكل تلك المهارة ، الصعود أولاً ، والصدم ثانياً ، وتفادي الجدار والواجهة ثالثاً ، والعودة إلى الطريق العام أخيراً .. فالمخمور إن ضاع رشده فإنه يفقد الزمام فيدهس ويضرب سيارته ويحطمها .. ولا يستطيع الهروب بسرعة البرق ، كما فعل هذا الجاني .

ونظرت ليلى إلى خالد نظرة مملوءة بالإعجاب بما قال المفتش

العظيم ، وبإعجاب آخر بما استنتجه خالد نفسه .
وتدخّل خالد بالحوار قائلاً :
– ألم يتمكن أحد ممن شاهدوا الحادث التقاط رقم السيارة أو أوصافها ؟
ونظر الوالد إلى ولده نظرة أقرب ما تكون إلى الاعتزاز به ، وأجاب :
– حاولت أن أجد جواباً لهذا السؤال لدى الشهود القلائل الذين شهدوا الحادثة ، ومع الأسف فلم يلتقط أيّ منهم رقم السيارة ،وكذلك فقد اختلفوا في أوصاف السيارة اختلافاً بيّناً ، لكنهم أجمعوا على أنها سوداء اللون ومطفأة الأنوار .
قال خالد بأسف ظاهر :
– تلك صفات تتفق وكثير من آلاف السيارات .
قال أبوه مكملاً حديثه :
– لكن ملحوظة بسيطة ، وردت على لسان أحد الشهود ، ربما قادتنا إليها قريباً .
وتوقف المفتش عند هذا الحدّ من الكلام ، ولم يزد حرفاً .. بينا كان الفضول ينهش نفوس الجماعة كلها .. وكأنهم كانوا يتساءلون في ضمائرهم عما تكون هذه الملحوظة البسيطة ، بل ماذا تكون في لحظة رعب وعملية دهس وسيارة منطلقة عبر الظلام

نحو هدف معيّن ؟

وتجرّأت ليلى على سؤال المفتش :

– وما هذه الملحوظة البسيطة يا عماه ؟؟

ضحك المفتش جميل وقال وهو يداعبها :

– ولماذا تريدين معرفتها ؟ وهل ستشترك الفتاة الحلوة ليلى مع الشرطة في تحقيقاتها ؟.

احمرّ وجه ليلى خجلاً ، وقالت متلعثمة :

– لا يا عمي ! إنما هو مجرّد فضول يملأ الإنسان .

وكأن المفتش تأثر من جواب ليلى ، فقال لها :

– اسمعي يا ليلى ! قال أحد الشهود: إنه لاحظ أن عجلات السيارة بيضاء ، وأن أحد جوانبها عليه معجون أحمر داكن .. وهذه الملحوظة قد تسهّل علينا البحث إلى حدٍّ ما .

ونهضت الزوجة ، ومضت إلى المطبخ استعداداً لإحضار طعام الغداء ، فلحقتها ليلى لمساعدتها . وقال خالد :

– أبتاه ! أرى في الأمر شيئاً غير طبيعي .

ونظر إليه أبوه باستغراب ، وسأله :

– وما هو يا خالد ؟

أجابه الولد باسماً :

– غير الطبيعي أن يهمل الشاهد التطلع إلى رقم السيارة ،

وتشتدُّ عيونه إلى إطارات السيارة ، والمعجون الأحمر الداكن على جوانبها .

تطلّع إليه أبوه بإعجاب ، وقال :

– ملحوظة مقبولة يا خالد .. لقد دار في خلدي ما دار في خلدك ، وثِقْ أني حين قلت : « إن ملحوظة بسيطة أدلى بها أحد الشهود قد توصلنا إلى معرفة الحقيقة »، لا تعني أني صدقت الشاهد .

وعَلَت الدهشة وجوه الجميع ، وازداد اهتمامهم بسماع ما قد يعلل به المفتش كلامه ، فسمعوه يتابع قوله :

– إن هذا الشاهد موضوع تحت المراقبة الصارمة ، ومرصودة حركاته وسكناته رصداً كبيراً .

وهتف عصام بإعجاب :

– يا لله لعمي العظيم ! أنت رائع يا عم .. رائع جداً .. مَن يخطر في باله – في مثل هذا الظرف – شك بأقوال شاهد ؟ مع أنّ الظاهر يسعى إلى عون الشرطة على بلوغ الحقيقة ، ولا سيما أنه شاهد وحيد ، وشهادته لم يُدلِ بها سواه ، وقد تكون مفتاح السرّ كله ؟؟..

قهقه المفتش جميل لكلمات عصام ، وقال :

ـ ألم أقل لكم : إن رجل الأمن يجب أن يُعمِل فكره بسرعة كبيرة ، وأن يشك ويشك حتى يصل إلى اليقين ؟؟.. فهذه الشهادة لا غبار عليها ، لكنّ ملابساتها هي التي أوجدت في نفسي الشكوك من صحتها ، ومن صاحبها على حدّ سواء . وأنا من رأي خالد : كيف غفل الشاهد عن رقم السيارة ، وانشدّ إلى عجلاتها ، وجوانبها المطليّة باللون الأحمر الغامق ، ولماذا لم ينتبه إلى لون السيارة ذاتها ؟؟ أمَا كان لديه وقت يتطلع فيه إلى لون السيارة أو رقمها ، وكان عنده ما يتأكد فيه من عجلاتها ولون المعجون الذي دهنت به جوانبها ؟؟.

واعترض عصام على كلام المفتش ، قائلاً :

ـ إنه شاهد مضلل ، فقد يكون تعمّد ذكر هذه الأوصاف ليضلّل التحقيق .

هزّ المفتش رأسه نفياً ، وقال :

ـ لا يمكننا التسرّع بهذا الحكم عليه ، فقد يكون صادقاً ، وقد يكون كاذباً .. وعلينا نحن أن نأخذ بشهادته ولا نهملها ، كما علينا في الوقت ذاته أن نشك فيه وفيها .. الذي فعلناه أننا عمّمنا أوصاف السيارة على سيارات عناصرنا في كل أرجاء الوطن ، ووضعنا الرجل تحت المراقبة الصارمة .. وحين تنجلي

الأمور يظهر لنا صدقه أو كذبه .. ولكل حادث حديث .

ودخلت ليلى وهي تقول :

– هلمّوا إلى الغداء ، فهو جاهز .

تطلّع عصام إليها بنظرة عاتبة ، كأن عينيه تقولان :

– ولماذا لم تتأخري بضع دقائق كي يكمل المفتش كلامه المثير ؟..



خالد يكتشف جريمة

وتحلّقوا حول مائدة الطعـام ، وراحوا يتبادلون أحاديث شتى ، لكنها لا تمُتُّ بصلة بحادث العم حسن ، لأن المفتش هو الذي كان يدير الأحاديث ، وهو الذي أقصاهم عن العودة إلى ما كانوا يخوضون فيه مرة أخرى ، لكنه وعدهم قبـل أن ينهض بإرواء فضولهم في المساء حين يعود من عمله ، ومع ذلك فقـد صدرت عنه الكلمة التالية :

ــ يبدو لي أنّ هذه الجريمة حدثت دون تدبير سابق ، وأعني أنها بنت ساعتها .. إذ ربما اكتشف العم حسن بطريق المصادفة شيئاً يتصل ببائعة الورد هذه ، فاضطرّت هي وأعوانها للخلاص منه ، كيلا يفتضح أمرها وأمرهم .. ويظهر لي أنّ بين ما اطلع عليه العم حسن ومقتله زمناً قصيراً ، لا يسمح بالإعداد للجريمة ، وتدبير وسائلها .. ومثل هـذا التسرُّع يحدث كثيراً ، وهو في

الوقت ذاته يسهّل على المحقق الكشف عن المجرم ، لأن كثيراً من الثغرات تظل فاغرة دون ستر أو انتباه .

وتدخّل خالد ، وسمح لنفسه أن يسأل أباه السؤال الذي طالما كتمه :

– وماذا يعني قول العم حسن « إنها بائعة الورد » ؟ وهل توصلتم إلى تفسير هذه الكلمة ، أو تحديد شخصية بائعة الورد ؟

ردّ عليه والده بقوله :

– يمكن أن أقول: نحن إلى الآن لم نتمكن من حلّ معنى الجنيّ عليه ، ولقد تشعّب البحث معنا ، وأخذ اتجاهات شتى ، وآمل أن نصل إلى نتيجة قريباً .

تردّد خالد لحظات قبل أن يفاجىء أباه بما تجمّع لديه من معلومات ، وتبادل نظرة ذات معنى مع ليلى ، ثم تجرّأ على القول :

– أبتاه ! أرجو أن تسمح عني ، ولا تغضب عليّ إذا صارحتك بشيء .

وتوقف عند هذه الكلمة .

وبدت على وجه أبيه أمارات دهشة ، وقال :

– ماذا تقول يا خالد ؟ ولمَ تخشى من غضبي .. وفي حياتي لم أغضب عليك ؟؟.. أخبرني ، ما الذي تريد قوله ؟

أجاب خالد :

– أبتاه ! يخيّل إليّ أننا توصّلنا إلى « بائعة الورد » التي عناها العم حسن .

وازدادت دهشة المفتش ، وحملق في وجه ولده ، وقال :

– ماذا تقول يا خالد ؟ توصلتم إلى معرفتها ؟ كيف؟ أخبرني بسرعة !!

أجابه خالد :

– بدافع الفضول وحده ، عرّجنا أثناء نزهتنا الصباحية على مكان الحادث ، وعلمنا من أحد باعة الصحف كيف حدثت الجريمة ، وقد كان هناك صدفة ، فحاورته ، وسألته : هل كانت هناك بائعة ورد في تلك الساعة ؟ فسخر من سؤالي ، وأجابني : أن مجنوناً لا يفكر في بيع الورد بين أربعة محلات كبيرة في الطريق الكبيرة .

وقاطعه أبوه بلهجة هي مزيج من إعجاب وسخرية :

– وبعد ذلك ، قصدتم محلات بيع الورد في آخر الشارع صدفة ، وحاولتم معرفة الفتاة المقصودة التي عناها العم حسن ، واشتريتم من كل محل زهوراً ... أليس كذلك يا خالد ؟؟..

أجابه خالد متعجباً :

– كذلك الأمر يا أبتاه !

قال أبوه وهو يحاول إشعال لفافة سجائر :

– وجدتم ثلاث فتيات يعملنَ في بيع الزهور ، وهنَّ مثال الطهر والبراءة ، لم يسمعنَ بالحادث أبداً .

ففغر الجميع أفواههم تعجباً، ولاسيما حين أردف المفتش يقول:

– والمحل الرابع الأخير لا تعمل فيه أية فتاة . أليس كذلك يا خالد ؟

كان خالد متألماً ومتعجباً من حديث والده ، فقال :

– بل تعمل فيه فتاة ، وهي التي تبحثون عنها .

وتوقف المفتش عن سخريته ، وسأل ولده باهتمام :

– أحقاً ما تقول يا خالد ؟ هل رأيتم فتاة هنـاك ؟ ولماذا تقول إنها ضالـّتنا والتي نبحث عنها ؟.

أجابه خالد ، وقد ارتدّت ثقته إلى نفسه :

– أنا لم أرَ الفتاة، ولو كانت هناك لمـَا شككت في أمرها.

وعاد الأب يستدرج ولده بالسؤال :

– ولماذا لا تشك فيها لو كانت هناك ؟

قال خالد بهدوء :

– استقبلني شابان بغلظة وفظاظة ، كأنهما يريدان طردي، ولم يبيعاني إلا تمويهاً لحالتيهما ، وبينما كانا يعدّان لي مـا طلبت من أزهار ، لمحتُ حقيبة نسائية معلـّقة على مشجب ، ويسترها

معطف أبيض مما ترتديه الفتيات البائعات في مثل هذه المحلات.

وبرقت عينا الوالد بفرح عظيم، وقال مشجعاً:

— هذا عظيم منك يا خالد! هل عندك شيء آخر ؟؟.

أجابه خالد مسترسلاً:

— وقد عرّجت — عَرَضاً — على ذكر وفاة العم حسن، وحينئذٍ تبادل الرجلان نظرات مضطربة، أو هكذا خُيّل إليّ، ولا سيما حين عرضت عليهما الاشتراك في تشييع جنازته مع بقية أبناء الحيّ.

ولم يملك الأب نفسه إلا أن نهض وقبّل ولده، وقال:

— عظيماً كنت في ملاحظتك وسلوكك، ولك عليّ أن أفسّر لك عند عودتي في هذا المساء، ما تبقّى من الحقيقة التي سرتم في دربها شوطاً بعيداً.

وانصرف المفتش مسرعاً، وترك لزوجته استكمال الحوار مع هذه المجموعة الذكية الرائعة، فقالت لهم:

— ماذا أقول عنكم أيها الـ ... ؟ متى فعلتم كل هـــذا ؟ قلتم: نحن خارجون للتريّض والتنزّه، فزججتم أنفسكم من جديد في أعمال الشرطة!

ضحك ابنها خالد، وتقدّم منها، وقبّل رأسها، وقال:

— أماه!! لم نفعل ما يستحق لوماً أو عتاباً أو غضباً .. كل

ما فعلناه أننا اندفعنا إلى بعض التحرّيات .. وقـد رأيتِ بأم عينيكِ أنّا أسعدنا أبانا بما وصلنا إليه !

قالت له أُمه بلهجة فيها تمنٍّ ورجاء :

ـــ كم أودُّ ألاّ يكون في الأسبوع يوم عطلة ، لئـلا تتسللوا باسم الرياضة والنزهة إلى مغامرات لا ناقة لكم فيها ولا جمل .



شاهد الزور

وصل المفتش « جميل » إلى مكتبه ، إذ كان ينتظره فيه مساعده « ماهر » ، وقد كان المفتش استدعاه صباحاً ، قاطعاً عليه راحته وعطلته الأسبوعية ، ومع ذلك فقد سعد ماهر بهذا الاستدعاء لأنه يحب رئيسه ويجلّه .

« ماهر » هذا استطاع بأجهزة رجال الأمن التابعين له أن يستجمع معلومات عن مقتل العم حسن انصياعاً لأوامر رئيسه.

وما إن دخل المفتش مكتبه حتى هبّ ماهر قائماً احتراماً وتعظيماً ، وكان قبل دخوله يقرأ تقريراً من الشاهد « محمد علي سالم » الوحيد الذي أدلى بمعلومات عن عجلات السيارة وطلاء جوانبها .

حيّا المفتش مساعده تحية رقيقة ، وابتدره سائلاً :

– ماذا وراءك يا ماهر ؟ هل توصلت إلى شيء جديد في الموضوع ؟

أجاب ماهر بلهجة تنمُّ عن الفخر والتعظيم معاً :

– نعم يا سيدي المفتش! الشاهد « محمد علي سالم » من أنشط تجار المخدرات ، وقد سبق أن حُكم عليه في أكثر من قضية .

قرّب المفتش حاجباً من حاجب تعبيراً عن التقطيب والعبوس، وتمتم كلمات قائلاً في صوت خفيض :

– تاجر مخدرات !! وهو الشاهد الوحيد !!.

ثم سكت ، وأطرق برهة ، وبعدها قال فجأة :

– يا ماهر ! حالاً اذهب إلى محل « أيوب وشركائه » تجار الورد في الشارع الكبير .. إن عندهم فتاة تعمل في المحل ، ولم تداوم اليوم.. كل ما أطلبه الآن أن تراقب هذا المحل مراقبة صارمة ودقيقة .. أريد أن تراقب كل داخل وخارج ، كل مشترٍ ومتفرج ،كل صغيرة وكبيرة.. تتبّعْ أيّ إنسان يدخل المحل ، ولاحِقْه ، وخذ معك ما تشاء من الرجال والسيارات وما يلزمك .. من هذا المحل سنخرج بقضية .. ربما كان محورها « تجارة المخدرات » .

هزّ ماهر رأسه يميناً وشمالاً هزّة خفيفة كأنه فيها يقول لرئيسه :



مفتاح القضية

– لم أفهم ما تعني.. ولم أستطع الربط بين جريمة العم حسن وتجارة المخدرات .

ثم صاح بصوت مسموع :

– قضية مخدرات يا سيدي ؟؟.

أجابه المفتش :

– بلى! هذا ما أرجحه ، وسنجد تأكيداً أن الشاهد الوحيد « محمد علي سالم » غارق حتى أذنيه في هذا الموضوع وفي تجارة المخدرات .

وتهيّأ ماهر للانصراف تنفيـــذاً لأوامر رئيسه .. وفجأة جاءه صوت المفتش قائلاً :

– أما أنا فسأتجه في دراسة الموضوع اتجاهاً آخر ، وحين أنتهي سوف ألحق بك..وإياك أن تُشعِر أصحاب المحل المذكور أنهم مراقَبون ، واعلم أن وجود الشاهد « محمد علي سالم » بينهم دليل على أخذهم الحذر والحيطة ، والانتباه إلى تصرفات رجال الأمن.. وأقترح أن تجند في هذه القضية رجال «الفرقة الخاصة» فهم غير معروفين لا من محمد علي سالم ولا من سواه ، وهذا أضمن للنجاح ..

وحيّا ماهر رئيسه إيذاناً بانطلاقه إلى تنفيذ ما طلب منه. وما إن خرج حتى أخذ المفتش الهاتف ، وأدار قرصه على رقم

معيّن ، ثم بدأ الحديث :

– رائد منصور ! أسعد الله مساءك أولاً .. ثم هل أجد في ملفاتك ما يحمل اسم « أيوب محمد صالح » ؟.

أجابه منصور من الطرف الثاني :

– دقيقة واحدة ، وأقدّم إلى سيادتك الجواب .

قال المفتش :

– إذن ! أنا منتظرك .

وما هي إلا ثوانٍ حتى عاد الرائد منصور ليقول :

– سيادة المفتش ! «أيوب محمد صالح» له ملف ضخم وحافل بالقضايا .

أجابه المفتش :

– هكذا ؟؟ أرجو أن ترسل لي ملفه مع أحد رجالك حالاً .. والشكر لك .

ثم أقفل الخط ، وقعد ينتظر ويفكر .

ومضت ربع ساعة ، وهو على هـــذه الحال . وسمع طرقاً خفيفاً على الباب ، وسمح للطارق بالدخول ، وكان الطارق مبعوث الرائد منصور يحمل الملف المطلوب ، فأخـــذه المفتش ، وطلب منه الانتظار خارجاً ريثما يطّلع عليه ، ومن ثَمّ يردّه إلى الرائد.

حيّاه الطارق ، وخرج .

وفتح المفتش الملف ، وشرع يقلب صفحاته بعناية بالغة ، ويدوّن على ورقة أمامه بعض المعلومات..وأخذت هذه العملية منه مدة ليست بالقليلة .. بعدها طوى الملف ، وضغط على زرّ الجرس مستدعياً الرجل الذي جاء به ، وسلّمه إليه ، وصرفه.

وهَمّ بمغادرة المكتب ، وفجأة ترامى إلى مسامعه جرس هاتفه يرنّ .

تناول السماعة وأصغى ، فإذا المتكلم مساعده « ماهر » :

– سيدي المفتش ! أعتقد أنّا وصلنا إلى لُبّ الحقيقة .

أجابه المفتش باهتمام زائد :

– هل توصّلتم إلى شيء ؟؟.

قال ماهر :

– بلى ، توصّلنا إلى صلب القضية .. سيدي ! هل تحضر أنت أو أحضر أنا ؟؟.

أجابه المفتش :

– طالما أن معلوماتك كبيرة فلتحضر أنت .. وإياك أن تخفف من ضغط المراقبة أو استمرارها .. وأقفل السماعة .

وجلس ينتظر ويفكر .. وطافت بخياله كلمات ولده خالد عند الظهيرة .. وبدا له أنه كان على حق فيما ذهب إليه.. وأنه كان موفّقاً حين عيّن المحل الذي انطلقت منه الجريمة..وعادت

الأخيلة تلفُّ وتدور حول ما قاله مساعده ماهر .. ثم انتقل به بصره إلى الملاحظات التي نقلها عن ملف « أيوب » صاحب محل الزهور الذي تحدّث عنه خالد .. ودلّ عليه .. وقرأ :

* في سنة ١٩٣٨ قُبض عليه وهو يحـــاول تهريب خمسة كيلوات من الأفيون عن طريق البحر ، وعوقب بالسجن خمس سنوات .

* في سنة ١٩٤٣ قبض عليه متلبساً بجريمـــة تهريب عشرة كيلوات من « الحشيش » عن طريق النهر الكبير ، وحكم عليه بالسجن خمس سنوات .

* في سنة ١٩٥٠ قبض عليه في سيارة بترول مخبئاً في أحد مخازنها مائة كيلو أفيون ، واستطاع الهرب، وقبض على السائق وحكم عليه بالسجن وحده .

* في سنة ١٩٥٣ قبض عليه في سفينة صيد ينقل خمسين كيلو من الأفيون ، وتمكن من الهرب ، وقبض على الربان، وحكم عليه بالسجن المؤبد والأشغال الشاقة .

ومنذ ذلك التاريخ اختفى ، كأنه ملح أصابه ماء فذاب ، ولم يعد يراه أحد .

طوى المفتش الورقة ،وأشعل دخينة، وراح في تفكير عميق ..

— إذن « أيوب وشركاؤه » هو هذا ليس غير .. هو المهرب

الكبير الخطير .. إذن هو اليوم بائع زهور وورد ورياحين .. ولكن.. قال المفتش في نفسه: ما علاقة الزهر والورد بالمخدرات..

وطرق ماهر الباب ، ودخل محيياً ، ووجهه يطفح سروراً وبشراً وحماسة ، فاستقبله المفتش بترحاب، ودعاه إلى الجلوس، وقال :

– هات خبرك يا ماهر .. قلت : إن القضية أوشكت أن تنتهي !!

اعتزل ماهر في جلسته ، وانطلق يقول :

– راقبنا المحل كما أمرت يا سيدي ، وكان كل شيء يجري طبيعياً تماماً، وإذا أنا ألاحظ أمراً غريباً.. كان هو الذي دفعني إلى أن أتصرف .

سأله المفتش بلهجة كلها عطف وحنان :

– ما هذا الأمر ؟

أجاب ماهر :

– لاحظت أناساً بهيئات مختلفة يترددون على المحل ، ويخرج كل منهم حاملاً زهرة واحدة في أغلب الأحوال، وأحياناً يخرج بعضهم حاملاً زهرتين أو ثلاثاً .. لم يكن هذا كله ليثير شكي ، لولا ملاحظة عابرة جعلتني أعيد تفسير ما رأيت تفسيراً جديداً. شاهدت عربة قمامة وقاذورات يجرها حمار نحيل وقد وقفت على

الطرف المقابل لمحلات أيوب، وراح قائدها الرث الهيئة، الزريّ الملابس ، الممزق الثياب ، الأشعث الشعر .. يعبر من جانب إلى جانب ، ويتجه إلى المحل المذكور ، ويدخله ..

وتابع يقول :

ـ في أول الأمر ، ظننت أنه يريد جمع القمامة من المحـل ، وحملها إلى عربته ، ولكني كدت أصعق حـين رأيته يشتري زهرة . وقلت في نفسي : من غير المعقول أن يكون مثل هذا الرجل المدقع شغوفاً بالزهور إلى هذا الحد.. ومن غير المعقول أن يفضل رجل يجمع القمامة ، وهذه صفاته أن يصرف درهماً واحداً على شراء زهرة وهو بأمسّ الحاجة إلى شراء رغيف خبز بهـذا الدرهم .. إذن : السرّ يكمن هنا وفي هذه الزهرة التي اشتراها..

ومال المفتش بجسمه كله إلى أمام ، وقـد انفتحت عيناه أكثر .. أو كأنه غدا بكل جسمه أذناً وعيناً تنظر وتصغي إلى ماهر ، وسأل :

ـ وماذا فعلت لتتأكد ؟؟

أجابه ماهر :

ـ انتظرت حتى ابتعدت العربة مسافة كافية ، وغابت عن أنظار محل أيوب ، والشارع كله ، وأنا أتبعها ، وعيني مثبتة على الوردة بيد الرجل ، وقـد أمسكها بحرص شديد .. ثم أوقف

العربة مرة أخرى ، وأمسك بالوردة ، وأخذ يمزق أوراقها ، ويرميها .. وتناول منها شيئاً لم أتبينه أول الأمر ، وأسرعت حينئذٍ بمهاجمته ، وأمسكت بيده فوجدت فيها قطعة من الأفيون.

قال المفتش بارتياح :

– عظيم عظيم يا ماهر !! هذا أول خيط الجريمة الذي يكشف سبب مقتل العم حسن .. قل لي : كيف تصرفت بعدئذٍ ؟

قال ماهر :

– ألقيت القبض على الرجل ، وأرسلته إلى هنا ، وهو الآن في سجن منفرد انتظاراً لاستجوابه .

أجابه المفتش :

– استدعِ الرجل .. أودُّ أن أسأله بنفسي .

وعاد ماهر بعد دقائق ، ومعه العجوز الرثّ الملابس وهو يبكي بحرقة ، وتكاد قدماه لا تستطيعان حمله .

وأحسّ المفتش لحظتئذٍ بالإشفاق على هذا الرجل المسكين ، ولكنّ القانون فوق الإشفاق والعواطف ، والواجب في المكان الأسمى من حياة الإنسان وعمله .. إن الرحمة من حق هيئة المحكمة وحدها .

وأشار إلى الرجل أن يجلس .. لكنه كان أضعف من أن يصدق الأمر بالجلوس .. وكأنه ينتظر إعدامه فوراً .

قال الرجل ، بعد أن أعاد عليه المفتش أمره بالجلوس :
— العفوَ يا سيدي .. العفو !!
قال له المفتش بلطف :
— إجلس .
وجلس الرجل على طرف المقعد، كأنه يخشى أن يملأه قذراً.
سأله المفتش برفق :
— ما اسمك أيها الشيخ ؟ وما عملك ؟.
أجاب الرجل بصوت واهن القوى :
— اسمي « هشام علي محمد » وأعمل في جمع القمامة من بعض البيوت .. أنا رجل مسكين يا سيدي .. أقسم بالله العظيم ..
قال المفتش :
— اصدقني الخبر يا هشام ، وسأحاول — قدر طاقتي — أن أساعدك .
أجابه هشام بسرعة :
— أقسم بالله أن أقول الحق .. ولا شيء غير الحق ..
قال المفتش بهدوء :
— لقد ضبطك مساعدي ومعك قطعة أفيون .. من أين جئت بها ؟
أجابه الشيخ وهو يبكي :

— جئت بها من عند « زكي » بائع الورد .
سأله المفتش :
— ومن يكون « زكي » هذا ؟.
أجابه الشيخ :
— إننا نعرفه باسم « زكي الحرامي » ، وهو يعمل في محل « أيوب » للزهور .
عاد المفتش يسأله :
— منذ متى وأنت تتردد عليه لشراء الأفيون ؟
أجابه الشيخ بصراحة :
— منذ أكثر من سنة .. وكان قبل ذلك يبيعنا الأفيون من محله الآخر ، في « شارع الأيوبيين » .
عاد المفتش يسأل :
— أكان يبيع الورد في شارع الأيوبيين ؟.
أجابه الشيخ مصححاً :
— لا يا سيدي ! كان يبيع علف الحيوانات من تبن وشعير ، وكان يدس لنا الأفيون في الشعير .
وتأكد المفتش أن الرجل صادق في حديثه ، فقال :
— وما نظام بيعه هنا؟وكيف يعرف إن كان الشاري مدمناً؟ أليس من الجائز أن يكون الشاري أحد رجال الشرطة السريين؟

أجابه الشيخ عن أهم ما كان المفتش يود معرفته :
– لا يا سيدي ! لو كنت تجهل كلمة السرّ فلن يعطيك إلا وردة عادية .
ازداد اهتمام المفتش ، وسأله :
– وما هي كلمة السر ؟.
سعل الشيخ بشدة ، اهتز لها جسمه ، وقال :
– تقول أولاً « زكي » ثم تحدد الصنف الذي تريد .
قاطعه المفتش قائلاً :
– معنى ذلك أن أقول له : « زكي أفيون » لو كنت أرغب شراء أفيون ؟
هزّ الشيخ رأسه نفياً ، وقال :
– لا يا سيدي ! إن كان المدمن يريد أفيوناً يقول له : « زكي أحمر » .
عاد المفتش إلى سؤاله :
– وإن كان يرغب في الحشيش ؟
قال الشيخ :
– يقول حينئذٍ : « زكي أبيض » .
نظر المفتش إلى ماهر ، وعاد يحاور الرجل :
– وكلها زهور قرنفل ، حمر أو بيض .. ولكن كيف يحدد

الكمية.. أليس محتملاً أن يطلب زبون كمية أكبر من زبون آخر؟؟

قال الشيخ موضحاً :

– في هذه الحال يقول: « زكي ثلاثة أحمر » أو « زكي عشرة أبيض » كما يشاء .

وفهم المفتش كلمة السر ، وقال للرجل :

– سأكافئك على صدقك ، وأجعل منك شاهـداً ومرشداً لهذه القضية ، بشرط واحد .

تهلل وجه الشيخ فرحاً وهو يقول :

– بارك الله فيك .. حفظك الله وحفظ أولادك .

قال المفتش يشرح له ما سوف يطلب منه .

– قلت لك : إن لي شرطاً واحداً .

قاطعه الرجل بسرعة :

– أشرط يا سيدي ما تشاء..سأنفذ كلما تأمر دون نقاش.

قال له ماهر :

– استمع إلى ما يطلبه منك سيادة المفتش ، واعمل على تنفيذه.

التفت الرجل العجوز نحوه وقال :

– سمعاً وطاعة يا سيدي ! سمعاً وطاعة !

قال المفتش :

– ستذهب كالمعتاد لشراء حصتك اليومية من عند « زكي »

وسنكون خلفك لنقبض عليه بعد أن نضبطه وهو يبيع المخدرات .. ولكن أهم من هـــذا كله هو أن تطيع أوامري لأخلصك من هذا الداء الوبيل . وسأدخلك إلى مشفى تجـد فيه العناية الكافية ، ويخلصك إلى الأبد من إدمان هذا المخدر القاتل .

رفع هشام العجوز راحتيه إلى السماء داعياً ، وقال :

– أطال الله عمرك .. أبقاك لأولادك .. خلصني من هـذه المصيبة ..

تابع المفتش حديثه ، وقال :

– في غدٍ ، تذهب كالمعتاد إلى محل « زكي » ، وسيصحبك سيادة النقيب متنكراً لشراء وجبة له ، وعليك أن تقدمـه إلى « زكي » على أنه صديق لك .

أجابه الشيخ مستنكراً ، وهو يلتفت إلى ماهر :

– ولكن يا سيدي ! كيف يكون سيادته صديقاً لمثلي ؟

ضحك المفتش جميل ، وقال :

– لن يذهب معك وهو في هـــذه الملابس ، سيتنكر حتى يكون مثلك تماماً ، وإن كان أصغر سناً .

ضحك الرجل العجوز ، وظهرت في فمه بضع أسنان سود ، وقال :

– حسناً يا سيدي ! ليكن ما تأمر وتريد .

وأطلق المفتش « القنبلة » التي مهّد لهـا كل هذا التمهيد الطويل ، فسأله فجأة :

– أخبرني يا هشام أين ذهبت الفتاة التي كانت تعمل في المحل؟

أجابه الشيخ بصوت خافت :

– تقصد « سناء » ، إنها ابنة المعلم الكبير .. إنهـا شيطانة يا سيدي !

أثارت كلماته اهتمام المفتش ، فقال يستوضحه :

– ماذا تعني بكونها شيطانة ؟

أجابه العجوز دون تحفظ :

– إنها قاسية القلب ، لا ترحم يا سيدي .. سلني عنها ..

أخذه المفتش باللين ، وقال :

– إلى هذا الحد ؟ ما خبرها ؟.

قال العجوز ، وكأنه يفشي سراً مكنوناً :

– إنها يا سيدي كل شيء .. هي المعلم الكبير .. وهي التي تصدر الأوامر ، وتجلب البضاعة ، وتحصل الإيرادات .. والجميع يخشون منها خشيتهم للموت ..

وعجب المفتش من هذا الجواب ، فسأل :

– ولكن ! ما صلتها بك ؟

أجابه العجوز :

– ذهبت يوماً إليها، ولم أكن أملك ثمن الوجبة، واستعطفتها لتعطيني وجبة أسدد لها ثمنها في المساء، ولكنها رفضت، وألححت عليها بالرجاء .. وإذا هي تنهال عليّ ضرباً ، وأمرت زبانيتها فألقوني خارج المحل .

سأله المفتش برفق :

– ولكنها ليست اليوم في محل الزهور .. أليس كذلك ؟

أجابه العجوز توّاً :

– إنني لم أرها اليوم فقط ، ولكنها تداوم طوال الأيام ، وتباشر عملها بنفسها، وقد استلمت العمل منذ أصيب أبوها بالشلل.

سأله ماهر بلهفة :

– ولكن لماذا لم تذهب اليوم إلى المحل لتباشر العمل بنفسها كالعادة ؟

قال الشيخ بصوت هامس ، وكأنه يخشى أن تسمع كلامه :

– أنا وحدي الذي يعلم لماذا لم تحضر اليوم .. أنا وحدي .

تبادل المفتش ومساعده نظرات ذات معنى، ثم قال المفتش:

– أخبرني بكل شيء .. وأنا أساعدك، وأقف إلى جانبك.

قال الرجل :

– إنها هاربة بعد أن أمرت رجالها بقتل بائع الصحف .. هل تعرفه ؟ إنـــه رجل مسكين .. عثر على زهرة في الطريق

فالتقطها، وحين رفعها إلى أنفه شمّ فيها رائحة الأفيون، وتوقف المسكين دهشاً أمام محلها ، وفتش في داخل الزهرة ، وعثر على قطعة الأفيون .. ولسوء حظه كانت « سناء » في المحل، وكنت أنا بداخله أشتري وجبة المساء ، وسمعتها تقول بغضب :

– أيها الأبله! لقد سقطت منك زهرة، واكتشف هذا الشيخ الخرف ما بها .. هل تعرف من يكون ؟

أجابها « زكي » وهو يرتجف :

– إنه رجل طيب ، وهو صاحب محل بيع الصحف والمجلات في آخر الشارع ، واسمه العم حسن .

واستطرد العجوز يقص على المفتش ومساعده بقية القصة :

– سمعتها وهي تقول لسائق سيارتها ، واسمه « فوزي » : أسرع وراءه ، يجب أن يموت .. يجب أن يموت .. حالاً .

واستدارت اللبؤة نحوي وقالت وهي هائجة :

– لو فتحت فمك بكلمة فسوف ألحقك به .. أسمعت ؟

أجبتها ، وأنا أرتعد :

– لا .. لا شأن لي بذلك .. أعطني وجبتي ، وسأنصرف حالاً ، فأنا لم أر شيئاً ، ولم أسمع شيئاً ، ولن أقول شيئاً ..

وأعطتني الوجبة المعتادة بعد أن دفعت إليها ثمنها ، ثم ودعتني قائلة :

– إذهب من هذا الطريق .. لا تلتفت خلفك .. أفهمت ؟؟

وخرجت مهرولاً من المحل ، ولكن ما جرى أمامي في تلك اللحظة سمّر أقدامي ، فلم أملك حراكاً .. لقد كان الناس جميعاً يصرخون استنكاراً ، ويهرولون تجاه الصيدلية ..

لقد فعلها فوزي .. نفذ أوامر المعلمة .. ودهس العم حسن، وولّى هارباً ، وسمعتها في تلك اللحظة تقول لأحد رجالها واسمه « محمد علي سالم » : إذهب إلى مكان الحادث ، وتأكد من موته ، وإذا استدعيت للشهادة ، فضلّل الشرطة ..

كانت المعلومات التي أدلى بها هذا العجوز ثمينة لا تقدر ، فقال المفتش :

– وهل ذهب « محمد » هذا ؟

أجابه العجوز دون تردد :

– نعم ! لقد ذهب، واندس بين الناس الذين أحاطوا بالرجل المسكين ، وقد اضطررت للانصراف حين سمعت المعلمة تهتف في أذني :

– لماذا تقف كالأبله ، انصرف وإلا ألحقتك به .

لم أتردد ، يا سيدي ، فأخذت عربتي وحماري وأنصرفت ، وأنا أكاد أموت رعباً .

قال المفتش لماهر :

ـ عليك أن تكتب أقواله في « محضر » ، ولكن « شاهد الادعاء العام » ، ثم عُدْ به إليَّ لألقنه دوره الذي سيمثله في الغد.

وانصرف ماهر وبصحبته العجوز ، وأشعل المفتش دخينة ، وغرق من جديد في التفكير .. ثم أخذ الهاتف ، وأدار قرصه عدة دورات ، وطلب رئيس مكافحة المخدرات ، ولما علم أنه في عطلته الأسبوعية ، اتصل به في منزله ، فوجده ، فقال له :

ـ يا حضرة الرئيس ! إني لآسف على إزعاجك في هذه الساعة ، ولكن الأمر يهمك كثيراً ، وهو من اختصاصك .. الموضوع هو « أيوب » .

وهتف رئيس مكافحة المخدرات :

ـ أيوب؟هذا غير معقول؟هذا ملح ذاب وابتلعته الأرض.. هل تمَّ القبض عليه ؟ أجابه المفتش :

ـ لمَّا نقبض عليه .. ولكن سيتم ذلك في صباح الغد،وبما أن هذا من اختصاصك فلتتول أنت أمره ، وأنا وراء ابنته وأحد رجاله ، وقد قتلا شيخاً اكتشف أمرهم بالأمس ..

سأله رئيس مكافحة المخدرات :

ـ هل تتكلم من مكتبك ؟

أجابه المفتش : نعم .

قال رئيس المكافحة بسرعة :

ـ إذن ، فانتظرني .. سأكون عندك بعد دقائق .

وضع المفتش السماعة مكانها، ودلائل الرضا بادية على محياه .. وقال في نفسه : سأنتقم لك أيهـــا الشيخ المسكين .. ولسوف أرضي روحك الطاهرة يوم غد ..

وسمع بضع طرقات على الباب ، ظهر بعدها ماهر ومعــــه العجوز ، وبيده أوراق قدمها إلى المفتش قائلاً :

ـ أخذت أقواله كلها ، وسجلتها .

وأخذ المفتش الأوراق ، وألقى عليها نظرة سريعة ، ثم قال:

ـ سيصل رئيس مكافحة المخدرات بعد قليل ، ويجب أن نوحّد جهودنا ، كلٌّ يعمل بما اختص به .. فالمخدرات من اختصاصه وجرائم القتل من اختصاصنا .

لم يتغيب رئيس المكافحة طويلاً إذ حضر مسرعاً ، واستقبله المفتش مرحباً ، وتساءل رئيس المكافحة :

ـ أنا لا أكاد أصدق أذني أن « أيوب » هـذا وقع في الفخ أخيراً .. آه !! كم أتمنى أن يكون القبض عليه بيدي .

وأشار المفتش إلى العجوز ، وتوجه بحديثه إلى رئيس المكافحة :

ـ هاك «شاهد الادعاء العام» في القضية ، وهو المرشد الذي سيوصلك إلى القبض على أيوب ، أمـــا ابنته المدعوة « سناء » والمدعو « زكي » فهما من نصيبي أنا ..

نهـــاية سارة

كانت الأحداث تمرّ سراعاً .. وكان لكل من المفتش ومساعده ورئيس المكافحة ورجال الأمن وأسرة المفتش دور في بلوغها غايتها ، ووصولها إلى قمة نجاحها .

وعاد المفتش إلى منزله بعد أن كاد الليـل ينتصف ، ووجد « الفرقة » كلها ساهرة تنتظره على أحرّ من الجمر .

كانت البهجة تمـــلأ جوانحه ، والبسمة تطفح على وجهه ، والفرحة العارمة تملأه .

وابتدأ هو الحديث ، قبل أن يشرعوا بسؤاله :

– أهنئكم يا أولادي من صميم قلبي! لقد صدقت معلوماتكم.. وأبشركم أنه في صباح الغد سيتم القبض على أخطر تاجر مخدرات، وعلى أعوانه ، وعلى قتلة العم حسن المسكين .

وبهتوا لهذا الخبر المفاجيء ، إذ لم يكن يدور في أذهانهم أن تتم فصول الرواية بين لحظة عـين وانتباهتها ، وظلوا محدقين في شفاه المفتش العظيم ينتظرون تفصيلاً وشرحاً ، لكنه خيّب

ظنونهم حين قال :

ـ لا تسألوني عن تفصيلات ، أو جزئيات ، أو ماذا عملنا ، أو ماذا نعمل ، أو ماذا سيكون غداً ... وأعدكم أن أشرح لكم كل صغيرة وكبيرة حين تتم الرواية فصولاً .

وأدركوا أنه لن يتكلم أكثر مما تكلم، ولن يفصح عن شيء، فتلك هي عادته .. وانتظروا أن تشرق شمس الغد ، ففي شروقها نور وهدى وكشف للظلمات ..

* * *

في الصباح.. أوقفَ العجوز هشام ـ كعادته ـ عربة أقذاره وقمامته في الجانب المقابل لمحل « أيوب وشركاه » وتوجه ومعه زميل آخر، يشبهه قذارة وضعفاً وتهالكاً..وسارا معاً ، وقطعا الشارع من طرف إلى طرف ، ودخلا إلى محل « أيوب .. » .

وما إن دخلا حتى فوجئا بفتاة شرسة ، مسترجلة ، عليها سيماء الغلظة والفظاظة ، يطفح وجهها شراً ، ويقدح لسانها شرراً .. ترتدي معطفاً أبيض اللون .

سألت الفتاة العجوز « هشام » بحدة وصوت أجش :

ـ من هذا الذي جئت به معك ؟

أجابها العجوز بصوت خافت ، ولسان منكر :

ـ زبون .. زبون طيب للورد الأحمر .

رمت الفتاة الفظة الزبون بنظرة احتقار وتعالٍ ، وقالت متهكمة :

– وماذا يريد ؟ أظنه زبون وردة واحدة مثلك ؟ أليس كذلك ؟.

أجابها العجوز باسماً :

– لا يا سيدة البنات .. إنه تاجر صغير ، جاء ليشتري مائة وردة حمراء .

وانفرجت أسارير الفتاة عن ابتسامة صفراء كالحة ، وألانت صوتها قليلاً ، وقالت :

– مرحباً به .. أين النقود ؟؟

أخرج زميله من صدره كيساً من القماش قذراً بالياً ، وحل عقده وسأل :

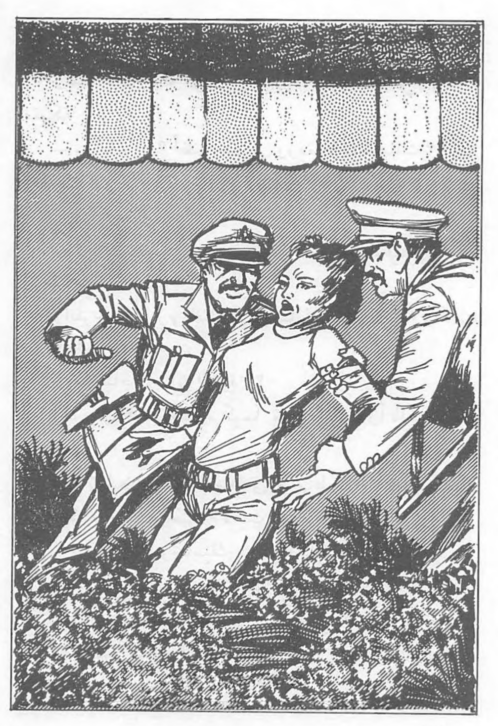
– كم تطلبين؟ يجب أن تعاملوني بحسم طيب ،فأنا تاجر مثلكم.

أجابته بصوت أجش ، لا يمت إلى الأنوثة بصلة :

– سنراعيك ، ونحاسبك على ثمن تسعين وردة فقط ، بدلاً من مائة .. فيكون لك حسم عشرة بالمائة ، أيرضيك هذا ؟

أطرق الزبون الجديد لحظة ، ثم رفع عينيه ، وقال متوسلاً:

– لا أيتها المعلمة !! أنا مثلكم أتاجر ، وأطالب اقتضاء ثمن ثمانين فقط ، أنا رجل فقير ..



وسقطت بائعة الورد

أجابته الفتاة بلهجة قاسية :

– ليكن ذلك في هذه المرة فحسب.. إنها أول معاملة بيننا وبينك .. ويجب أن نراعيك ، ونربحك زبوناً دائماً ..

ثم نادت قائلة :

– « زكي مائة وردة ، نصفها أحمر ونصفها أبيض المعلم » و « زكي وردة حمراء على حسابي الخاص للمعلم هشام » .

أخرج الزميل النقود من الكيس القذر ، وشرع في عدّها ، بينا كان الموظف «زكي» يجمع الورد الأحمر والأبيض المطلوب..

في هذه اللحظة كانت قوات الشرطة والأمن السرية تنتظر الإشارة بالهجوم .. وجاءتها ..

وهجم على المحل عشرات الرجال ، البيض الوجوه ، الساهرون على أمن المواطنين وصحتهم .. وطوقوا المحل ، والمنطقة كلها ، وهجم قسم منهم إلى الداخل .

وأسقط في يد سناء وزكي ، وبقية العاملين في محل «أيوب».

وضبط حراسُ الوطن والمواطنين كميات هائلة من أنواع المخدرات ، كلها سامة للروح والجسم والأخلاق .. وقد أعدّها هؤلاء لقتل المواطنين الأبرياء باسم التجارة .

وظهر المفتش جميل بين أفراد القوة المهاجمة ، وجهه يطفح نوراً ، وفؤاده يشعّ وطنية وغيرة وحباً للناس الأبرياء المساكين..

والتفت المفتش إلى رئيس المكافحة، وقد كان بين المهاجمين، قائلا :

– إذا انتهيت يا حضرة الرئيس من استجواب هؤلاء، فابعث إليّ بسناء، وزكي، وزميله فقضيتهم عندي أهم وأعظم.. إنهم متهمون بقتل العم حسن بائع الصحف عمداً مع سبق الإصرار .

* * *

وانتهى المفتش من تناول طعام غدائه، وأشعل دخينة ومال إلى فنجان الشاي، وهو يقول :

– تلك هي التفاصيل يا أولادي .. وثقوا بقول الله تعالى :

« فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

وقوله جل شأنه :

« وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقَلَبٍ ينقلبون » .

* * *

طبع في دار النفائس - ص.ب: ١١/٦٣٤٧ - هاتف: ٨١٠١٩٤ - بيروت